الجزء الأول

حافة المذبحة

obeikan.com

إهـــداء

إلى زوجتي الحبيبة..

جبهة داخلية لمحارب .. لا يمكن

أن يعود إليها إلا منتصراً .

المؤلف

obeikan.com

جازف

فإن سُدت جميع طرائق الدنيا أمامك فاقتحمها

لا تقف

كى لا تموت

وأنت واقف

محمد إبراهيم أبو سنه

obeikan.com

مقدمة

من لحظات الموت العادية .. من الحصار .. والأسئلة التي ما زالت بانتظار الإجابة .. من الدهشة الدائمة .. وصراع الدول والطوائف .. وحتى الوشايات النذلة .. عدت .. لا لكي أقيم الدنيا ولا أقعدها احتفاء بأنني خرجت من المذبحة على قدمي .. لكن لأنقل أصوات الصراخ من داخل العراق التي لا يسمعها أحد .. أصوات كرهت الطائفية .. ولعنت المسلحين وشوارعهم .. ولعنت كذلك تجّار البشر .. أصوات تمنت لو عادت القبضة الحديدية ، وحلت مكان القبضة الناعمة المليئة بالفحيح .. أصوات عَدّت الأيام والشهور والسنوات لكي يصل صراخهم إليك عزيزي القارئ .. ولكي تشاركني في طرح ذلك السؤال المخيف :

هل ذهبت عاصمة الرشيد أثراً بعد عين .. أم أنها ستعود بعد أن تغرق أقدام المغول الجدد في نهري دجلة والفرات ؟

المؤلف

سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الأول

الطريق
إلى المذبحة

obeikan.com

obeikan.com

١ - الدخول

لاشيء يغرى على العمل فى بلد مثل العراق لأى شخص ما عدا الباحث عن الحقيقة والمسحور بحب المخاطر من الصحفيين خاصة اذا كانت هناك فرص للعمل فى أكثر من ٣٠ دولة تضم مكاتب وكالة أنباء الشرق الاوسط فى أربع من قارات الدنيا ولأننى لم أكمل مهمتى الأولى بالعراق قهرا لظروف وملابسات شائكة سيأتى ذكرها فى كتاب منفصل الا أن تلك المهمة غير المكتملة خلقت بينى وبين العراق بكل محافظاته علاقة حب مشتعلة للبلاد والعباد وما يغلف ذلك من أحداث ووقائع عصية على الفهم والاقتناع بحدوثها .. فالعراق بلد مؤهل بمكوناته وتاريخه وحاضره لأن يحمل صفات حملتها بلاد أخرى وأصبحت لصيقة باسمها فهو بلد المتناقضات، والغرائب، والعجائب والجن والملائكة وبلد العقل والجنون وبلد العزلة، والشتات وبلد الحب، والنار رغم صفاته التى صارت لصيقة لاسمه مثل بلاد الرافدين وما بين النهرين وأرض السواد .. ولأننى مولع بكل ذلك رحبت كثيرا بترشيحى لمهمة مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط بالعراق بعد سلسلة ترشيحات لزملاء أفاضل انتهت بالاعتذار عن المهمة المميتة فى بلد لا يملك المتابع لأخباره الا الابتعاد والائتمام بالسكون انتظارا لفرصة سفر أخرى وكنت أكثر المتابعين عن قرب لأخبار البلد المنكوب من خلال أصدقائى الذين حطوا برحالهم فى القاهرة كبلد الملاذ الآمن مثل ملايين غيرهم فروا تحت وطأة موجة العنف الطائفى التى أحرقت الأخضر واليابس وازدادت اشتعالا بعد حادث تفجير القبة الذهبية لأحد أكثر المراقد الشيعية تقديسا فى مدينة سامراء ذات الغالبية السنية فى ٢٢ فبراير عام ٢٠٠٦ .

لم يبدو أمر قبولى للمهمة الخطرة غريبا على كل من يعرفنى، ومضت الأمور بين ترحيب وترهيب ومخاوف وقلق انتهت بحجز تذكرة الطائرة التى أقلتنى إلى العاصمة الأردنية عمان توطئة لإكمال الطيران إلى عاصمة الرشيد المشتعلة وكان ذلك يوم الخامس عشر من يوليو عام ٢٠٠٦ .. وعندما كنت أنهى إجراءات الترانزيت فى صالة مطار الملكة علياء طلب منى شاب أردنى ضمن طاقم العمل التوقيع على إقرار كرّس مخاوفى المؤجلة من القادم الذى يمكن أن يكون أسوأ مما توقعت وينص هذا الإقرار وهو بمثابة تعهد على أننى أتحمل نفقة العودة من بغداد إلى عمان اذا رفضت السلطات هناك دخولى إلى الأراضى العراقية وهو ما أثار

دهشتى وسألت الشاب الأردنى المهذب عن سبب هذا الإقرار الملزم وهل يمكن أن ترفض السلطات العراقية دخولى مع أننى أحمل تأشيرة دخول رسمية وموفد من مؤسسة صحفية عريقة وشبه رسمية ورد الشاب المهذب بكل ثقة « أستاذ .. فى العراق الآن كل شيء جائز» وأبلغنى أن معلوماته هى أن الدخول إلى العراق فى مثل هذه الأيام محظور وربما ممنوع وأنه يتطلب موافقات أمنية من وزارة الداخلية وليس مجرد تأشيرة دخول من السفارة العراقية بالقاهرة .. وقعت صاغرا مندهشا على الإقرار وأنهيت إجراءاتى وتوجهت إلى فندق عالية الذى كان مقررا أن أبيت به الليلة لمواصلة السفر إلى بغداد صباح اليوم التالى.

وفى الطريق إلى الفندق الذى لا يستغرق عدة دقائق تداعت أمام عينى كل عناوين الصحف التى تابعتها وترددت كل القصص التى قصها أصدقائى العراقيون على مسامعى قبل أيام من مغادرة القاهرة؛ لترسم صورة قاتمة للوضع فى عاصمة الرشيد التى كنت على موعد للعيش فيها لمهمة استمرت أربعة أعوام كان الهاجس الأول فيها هو معرفة الحقيقة مع الاستمرار فى البقاء على قيد الحياة .

عندما دخلت إلى بهو الفندق هائما فيما كنت أفكر فيه، تتقافز أمام عينى صور مرعبة لواقع أكثر رعبا وجدت صديقى وزميلى مراسل الوكالة فى الأردن فاتحا ذراعيه بأشواق حارة للقاء صديق ذاهب إلى ساحة موت محقق ومذبحة تطحن رحاها كل من عاش بالعراق خلال تلك الفترة إما رعبا أو قتلا وهو ما جعل حبل الأفكار السوداء يرتخى قليلا فى مواجهة لحظات مودة صادقة من صحفى مصرى شهم تجشم عناء الوصول إلى فندق عالية بجوار المطار حرصا منه على أن يكون بمثابة الذكرى الطيبة الأخيرة التى احتفظت بها قبل الدخول إلى المذبحة .

وبعد لقاء ودى استعدنا فيه ذكريات عزيزة على قلبينا حاول خلاله صديقى الطيب أن يبتعد بى عن التفكير فى مهمتى المميتة ولو لبعض الوقت .. غادرنى أيمن داعيا لى بالتوفيق مع التأكيد على التواصل كلما أمكن للاطمئنان وذهبت إلى غرفتى بالفندق الراقى لأقضى ليلة أعتقد أنها كانت الأطول فى حياتى السابقة على تكليفى بالسفر إلى العراق اتصلت خلالها بزوجتى الحبيبة أكثر من ١٠ مرات لتهدئة مخاوفها وتخفيف لوعة الفراق الذى يمكن ألا ينتهى أبدا .

زاد من مخاوفى وقلقى تلك الحشود التى ملأت غرف وردهات فندق عالية من اللبنانيين الذين فروا من ساحة مواجهات دامية بعد أن بدأت القوات الإسرائيلية حربها ضد حزب الله فيما عرف بحرب تموز .. كان المئات من اللبنانيين قد

اصطحبوا عائلاتهم إلى العاصمة الأردنية عمان كمحطة ترانزيت للسفر إلى جهات أخرى .. كانت ملامح من رأيتهم تنطق بالقلق والرعب والإحساس بالمهانة والحزن وهو ما انعكس على شعورى بالقلق من رحلتى الخطرة لمهمة أشد خطورة من الحرب المباشرة التى يمكنك أن تعرف فيها من يضرب ومن الذى يتلقى الضربات وهو خلاف العراق الذى كنت أتهيأ للعيش به فلا أحد يعرف « من يضرب من» أو « متى تأتيك الضربة » أو« من سيوجهها لك » .. كان كل شيء يثير القلق ويرسم أجواء من عدم اليقين .. إلا أن المهمة المقدسة التى تنتظرنى جعلتنى أقضى الليلة لأتهيأ لها مع قليل من الطقوس التى اعتدت عليها وقت الشدة المصحوبة بالقلق .. حمام منعش .. الاستماع إلى الموسيقى .. صوت فيروز .. نجاة الصغيرة.. قراءة قليل من الشعر .. ثم أنهى تلك الطقوس بالاستماع إلى صوت الشيخ عبد الباسط الذى أحتفظ بالعديد من شرائط الكاسيت بصوته ومنها تسجيلات نادرة أهداها لى ابنه صديقى العقيد طارق عبد الباسط .. وبعدها أخلد إلى نوم لا يطول أكثر من ساعتين يمنحنى القوة للاستمرار .

عند النداء الأخير على رحلتى صعدت إلى الطائرة الأردنية المتجهة إلى بغداد فى صباح اليوم التالى ١٦ يوليو ٢٠٠٦ تتنازعنى الأفكار المغلفة بالمخاوف والرغبة العارمة للدخول إلى قلب المذبحة التى كانت مظاهرها قد اكتملت وانعكست آثارها على الأرض .. كنت المصرى الوحيد بالطائرة يرافقنى على متنها عراقيان وعشرات من الجنود الأمريكيين المتجهين لمهمة أخرى قد تنتهى بالموت أيضا فى العراق .. وعندما وقعت عينى على ملامح هؤلاء الجنود ذوى البنية القوية الذين يحملون شارة الجيش الأمريكى والكثير من الهويات، والكثير من الوشم على الذراعين أدركت أننى اقتربت كثيرا من المذبحة التى كان الدخول إليها مليئا بالإثارة والمواقف الغريبة التى بدأت مع دخول الطائرة إلى المجال الجوى لمطار بغداد والتى كان يتطلب هبوطها إلى أرض المطار الطيران بشكل دائرى ضمن ممر جوى آمن تحدده سلطات المطار تحسبا لهجمات محتملة مرورا بدخولى صالة المطار لإنهاء إجراءات الوصول .

٢ - شدتسوى هنا

وقفت ضمن طابور أمام شباك الإجراءات المخصص لغير العراقيين حاملا جواز سفرى وبدا الأمر غريبا بالنسبة لضباط المطار؛ حيث كان كل الواقفين فى

الطابور هم من القوات الأمريكية وهو ما جعل أحد الضباط يشير إلى متسائلا « الأخ مصرى؟؟!! » أجبته: نعم بكل فخر عندها بدت عليه علامات الدهشة وبادرنى بسؤال جعل المخاوف تتسابق لتحيط بى « كيف وصلت إلى هنا ولماذا أتيت إلى بغداد ؟؟ » وعلى الفور قدمت نفسى: أنا محمود الشناوى مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى بغداد .. ازداد تعجبه وارتسمت على وجهه ملامح غريبة من الدهشة وطلب منى التوجه معه إلى مكتب أحد المسؤولين بالمطار لتوضيح الأمر .. دخلنا إلى غرفة صغيرة فى صالة الوصول بمطار بغداد يجلس داخلها عراقى حاد الملامح يزيد حدتها شارب عريض أسود وشعر كثيف يغطى الرأس الضخم كرر نفس الأسئلة مندهشا بلهجة عراقية « شلون وصلت ؟ وشدتسوى هنا؟ » كررت الإجابة مع بعض الدهشة التى غلبها الخوف .. قال لى الرجل بعد تفحص جواز سفرى وتأشيرة الدخول .. حبيبى غير مسموح لك بالدخول لأنه كان المفترض أن تحصل على موافقة من دائرة الإقامة أو وزارة الداخلية .. عندها تذكرت ما قاله لى الشاب الأردنى الذى حصل على توقيعى على الإقرار «التعهد» فى مطار الملكة علياء فاستجمعت كل قوتى وخاطبت المسئول « يا فندم .. ممكن تصير مشكلة كبيرة إذا تم منعى من الدخول » .. تجهم وجه الرجل ورفع حاجبيه الثقيلين وقال لى بصوت مرتفع « شتكول» أى ماذا تقول؟؟ .. فتداركت الموقف سريعا وقلت له: سوف تصير مشكلة لى أنا وليس لكم ويمكن أن تؤثر فى مستقبلى لأن أحدا لن يفهم أنكم منعتم دخولى وإنما سوف يقال: إننى عدت قبل أن أبدأ مهمتى خوفا من الأوضاع .. عندها استراح وجه الرجل قليلا وغلفت قسمات وجهه الحادة ملامح طيبة عراقية تخفى شعورا بالشفقة والرغبة فى مساعدتى .

قال لى الرجل بلهجة عراقية تكسوها الطيبة « ابنى .. تدرى وين رايح » أجبته مسرعا نعم «مقر مكتب الوكالة فى شارع السعدون .. محلة ١٠٢ ..... » وقبل أن أكمل كلامى قاطعنى الرجل وقال أنا لا أسأل عن تفاصيل العنوان وإنما أسأل « تدرى إلى أين أنت ذاهب .. تعرف ماذا يجرى خارج حدود المطار» أدركت أن الرجل يشير بكلامه إلى المذبحة التى كنت قد وصلت إلى أول أبوابها .. استجمعت ما تبقى من شجاعة وقلت له أنا فى مهمة صحفية وهى مقدسة مثل القتال على الجبهة وإن شاء الله ربنا يوفقنى ويحفظنى.

استقبل الرجل الذى لمست فيه أول ملامح العراقيين الطيبين كلامى راسما على وجهه ملامح غريبة التفسير تتنوع بين القلق على شاب ذاهب بقدميه إلى

المذبحة وخوف من السماح لى بالدخول دون سند رسمى إلا أن رغبته التى بدت واضحة فى مساعدتى تغلبت وجاء قراره بالسماح لى بالدخول بعد أن تسلم أحد الخطابات الرسمية التى يحملها المراسل إلى عدة جهات فى الدولة التى كلف بمهمته الصحفية فيها وهو خطاب إلى من يهمه الأمر يطلب تسهيل مهمتى الصحفية .. ربت الرجل على كتفى بمشاعر أبوية وقال: «الله يوفقك ولكننى فعلا مشفق عليك » مع تعليمات بالحذر ودعوات إلى الله بأن يحفظنى من كل سوء .. ثم نادى على أحد مرؤوسيه ويدعى أبو محمد وطلب منه أن يصطحبنى فى سيارته الخاصة التى يستخدمها كسيارة تاكسى لتحسين الدخل حيث يقوم بتوصيل بعض الركاب القادمين عبر المطار إلى مناطق سكناهم .. ونبه عليه بأن يتصل به تليفونيا عند الوصول بالسلامة وقال هذا الولد: أمانة بعنقك ثم صافحنى مودعا وأنا فى حال من القلق والخوف من مجهول بدأت أولى ملامحه القاتمة تظهر شيئا فشيئا .

٣ - شيعى وسيد وشروكى

طلب منى أبو محمد أن أستقل السيارة دون أن أتكلم عند أى موقف ولا أخرج جواز سفرى من جيبى وشعرت أن الرجل يحمل فوق كتفيه حملا ثقيلا باصطحابى يزيده ضيقا قيظ يوليو غير المحتمل فى بغداد خاصة بعد أن خرجنا من صالات المطار شبه المكيفة .. بينما أنا فى عالم آخر من الأفكار والضيق والقلق ومشاعر متشابكة لا يمكن تفسيرها لم تمنعنى من ملاحظة التغييرات التى طرأت على مطار بغداد / صدام سابقا / والتى جعلت المطار يبدو مختلفا بشكل كامل عن المطار الذى شاهدته منذ ثلاثة أعوام تقريبا على كافة المستويات الخدمية والعملية .. وهاهم الأمريكان ينتشرون بملابسهم العسكرية والمدنية مدعومين باليات من الهامفى والهمر وغيرها من الآليات العسكرية التى تفرش أرض المطار بينما تحلق المروحيات العسكرية على مسافات قريبة ليبدو المشهد عجيبا على من زار عاصمة الرشيد قبل سقوط نظام صدام حسين حيث بدا المطار كثكنة عسكرية أمريكية يخدم فيها بعض العمال والموظفين العراقيين .

مررنا عبر عدة نقاط تفتيش تحميها مصدات حديدية وكتل اسمنتية مما جعل الصورة تبدو لأى شيء آخر غير صورة المطار المرسومة فى ذهن من يرتاد المطارات واستمر نفس المشهد الغريب حتى خروجنا إلى ساحة عباس بن فرناس

وهى آخر حدود المطار .. عندها بدأ التوتر يظهر على الرجل الذى يقود السيارة ولم تفارقه الدعوات بالستر والوصول بالسلامة وأن يكفينا الله شر الطريق والسيطرات الوهمية[1] التى لم أدرك معناها فى البداية حتى وصلنا إلى مفترق طرق يتوجه إحداها إلى وسط المدينة بينما يتوجه الآخر صوب العامرية غربى العاصمة بغداد كما تشير اللافتات التى تعلو حافة الجسر وتعبر عن صورة بغداد فى عصرها الجديد الذى يبدو أنه يحدد معالم جديدة للمناطق وصفات جديدة تكرس لمفاهيم جديدة فى زمن الفتنة الذى دشن سنوات المذبحة .

توقف أبو محمد عند مفترق الطرق الذى بدا أن أحدها وهو الذى يفترض أن نسلكه مغلق من قبل القوات الأمريكية بينما غيرت عدة سيارات كانت قادمة من المطار وجهتها وسلكت الطريق المفتوح واندهشت لتوقف السيارة التى تقلنا وسألت أبو محمد لماذا لا يسير مع باقى السيارات فى الطريق الآخر فطلب منى الصمت والهدوء .. وبعد لحظات اقترب منا عناصر دورية من الشرطة العراقية كانوا متوقفين عند مفترق الطريق وطلبوا من أبو محمد التحرك لأن التوقف فى هذا المكان ممنوع إلا أن الرجل أصر على التوقف وطلب منهم مساعدته فى المرور بالطريق الأساسى المتوجه إلى وسط المدينة فأبلغوه أن الأمريكان أغلقوه وربما يستغرق الأمر عدة ساعات إلا أنه أصر على الوقوف وسط شد وجذب مع عناصر الشرطة جعل أبو محمد يخرج من السيارة موجها كلامه إلى الشرطة بصوت مرتفع يابا ما يصير أعبر إلى ها الطريق لأنى شيعى وسيد وشروكى[2] ومعى صحفى ومصرى » فتغيرت فورا لهجة رجال الشرطة وطمأنوه بأنهم سوف يسمحون بتوقفه حتى يسمح الأمريكان بفتح الطريق المتوجه إلى وسط المدينة وسط دهشة شديدة من جانبى لما يجرى وما سمعته من كلمات جديدة على أذنى لا أفهم معناها وقوة تأثيرها التى جعلت من رجال الشرطة يسمحون لنا بما هو ممنوع ويتحملون مسئولية ذلك أمام الأمريكان إلا أن الأمر كان بالنسبة لى ضمن سلسلة الأمور الغريبة التى بدأت منذ وصولى مطار الملكة علياء .

---

(١) نقاط التفتيش الوهيمة التي يديرها رجال الميليشيات وفرق الموت ويرتدون زي القوات الأمنية الرسمية .

(٢) سيد : وتعني أنه ينتمي لإحدى عائلات الشيعة من آل بيت النبي ﷺ ، وشروكي : تعني أنه من أهالي الجنوب الشرقي للعراق وهو لفظ لضيعة بشيعة الجنوب النازحين إلى بغداد .

طلبت من أبو محمد الطيب أن يفسر لى ما سمعت وما يجرى ولماذا ننتظر ساعات حتى يفتح الأمريكيون الطريق مادام هناك طريق بديل أو عدة طرق أخرى للوصول إلى مقصدنا وسط بغداد .. فرد الرجل محتملا أسئلتى التى يراها سخيفة قائلا « إذا قدر لنا الله الوصول بالسلامة سوف أفسر لك لكن أطمئن إن شاء الله يصير خير وما يصير خاطرك إلا طيب» .

بعد حوالى ساعتين أشار أحد رجال الشرطة لنا بالمرور بعد أن ذهب الرتل الامريكى إلى غير بعيد مطالبا أبو محمد بالانتباه وعدم الاقتراب كثيرا حتى يرحلوا تماما إلى طريق اخر مذكرا اياه بأنهم لا يتورعون عن فتح جحيم اسلحتهم على كل من اقترب لمسافة تقل عن مائة متر دون تفسير او تحذير والنتيجة طبعا معروفة ومحتومة .. ابتسم أبو محمد للرجل شاكرا ومودعا داعيا الله أن يكفينا شر السيطرات الوهمية [1] .

بدأ أبو محمد يقص على مسامعى حكايات غريبة فى محاولة لتفسير امتناعه عن السير فى طريق «العامرية وحى الجهاد » ويشرح الكلمات الثلاث التى كان وقعها على أذنى غريبا « شيعى وسيد وشروكى» وأنا فى حالة من الدهشة التى يلفها الرعب وهى حالة جعلتنى أقف على عتبة الذاكرة وأتأمل فى أعماق الوجدان .. وبين زحام مكنوناته أبحث عن كلمات يمكن أن تصلح لترجمة الأفكار ورسم الأحاسيس .. فأنا أريد أن اعرف الحقيقة كما هى ولكن يبدو أن هذا كان فوق طاقتى .. كانت الحقيقة تبدو مزرية يموت المرء حزنا لمجرد تخيل أن ما يحكيه أبو محمد يحدث فى الواقع فعلا .. فيما القلق يكاد يقتلنى .. قبل أن أستنشق رائحة البارود وأرى لون الدماء فى واقع مجهول كان ينتظرنى .

عجز عقلى عن استيعاب الكثير مما يقوله أبو محمد الا أننى أدركت حقيقة واحدة سوداء وهى أن الناس فى أرض السواد وبلد النخيل باتوا صنفين فقط إما قاتل أو مقتول .. قفزت إلى ذاكرتى الصور التى كانت تبثها الفضائيات فى نشرات الأخبار .. صور الأشلاء ملقاة على شوارع المدن والقرى التى تصبغها أنهار الدماء تليها صور لعجائز لاطمات للصدور والوجوه .. ومشاهد أخرى لجثث تتوافد على المستشفيات بينما الآباء والأمهات يودعون أكبادهم والأشقاء الأشداء يبكون متوعدين بالثأر من عدو مجهول ربما لم يكن هو القاتل إنما ينتمى دون ذنب إليه .

(١) كانت نقاط التفتيش الوهمية تمارس عمليات الاختطاف والقتل على الهوية الطائفية (سنى أو شيعي).

قال أبو محمد قاطعا شرودى أن الخطورة تتجسد عندما يفلت الزمام ويصبح الانتقام ظاهرة بينما تتقلص إلى أدنى مدى مشاعر الوطنية والإنسانية .. فيقف الواحد منا متفرجا على بلده وهو يضطرب تنهشه العصابات والمارقون غير مكترث للدماء التى تسال والدمار الذى يحرق كل شيء .. بات كل منا يتفرج على ابن مدينته وهو يتعرض لاعتداء فى وضح النهار يسوغ موقفه الجبان بعبارة مقتضبة « يمعود إنى شعليه ، يعنى بالمصرى « وأنا مالى، وبات السؤال التقليدى « تريدنى أموت ؟» .. تعبنا من كل ما يجرى لم نعد قادرين على البكاء أو النحيب .. تقطعت أوصالنا مثلما تقطعت أوصال بلدنا وباتت شوارعنا محرمة علينا ومناطقنا مقسمة « هذا سنى وهذا شيعى» ونظر إلى متسائلا فى تنهيدة حرقت ما تبقى من مسافة « فهمت أستاذ يعنى إيه أنا شيعى وانت مصرى وما يصير نمر من الطريق المفتوح » .

عرفت فيما بعد أن مثل هذه المناطق مقسمة إلى مناطق نفوذ لميليشيات شيعية وأخرى سنية تحمل الكثير من الأسماء التى تثقل القلب حين سماعها وتبث الرعب فى النفوس إذا سار شخص فى الطريق الخطأ ليلتقى بعناصر الميليشيا الخطأ فى وقت خطأ لم يكن يجب أن يمر فيه .. وفى كل الأحوال فإن الضحية لا يمنح نفسه فرصة للإجابة أو التأمل ليصل إلى قناعة مفادها أن الدور حين يصل إليه لن يجد من ينقذه من منطلق « وأنا مالى، وسيكتشف أنه مات منذ أول يوم اختار فيه الهروب من المسئولية وأطلق سؤاله البذىء « تريدنى أموت ؟؟ « .

سألنى أبو محمد « عرفت استاذ ليه كنا ما نريدك تدخل بلدنا ؟؟ «عرفت ليه سألك سيدى « تدرى وين رايح؟؟ « .. أستاذ يبدو انك قررت فى الوقت الخطأ أنت تأتى إلى المكان الخطأ .. تنهد أبو محمد بينما كانت ملامح وجهى قد بدأت تتغير مستوحية مكنونات نفسى بعد كل ما سمعت وقال: تدرى أستاذ من هو أسوأ من الجلاد ؟؟ أجبته وأنا اشعر بدنو المذبحة نعم « الضحية اذا استعار أخلاق الجلاد « ابتسم ابو محمد وقال: « كانت حكوماتنا السابقة تقتل القتيل وتمشى فى جنازته أما القتلة الجدد فصاروا يقتلون القتيل ويقتلون من يمشى فى جنازته».

كانت السيارة تسرع الخطى شيئا فشيئا وأنا أشاهد فى دهشة عجيبة شوارع بغداد العريقة .. هل هذه بغداد الجميلة ملهمة الشعراء التى حلمت ذات يوم بالعيش فيها ؟؟ هل ضاعت بغداد مع ما ضاع من صور جميلة ؟؟ هل هذه بغداد التى غنت لها

فيروز كلمات وألحان الأخوين رحبانى « بغداد والشعراء والصور » ؟؟ .

٤ - مدينة أشباح عز الظهر

عندما دلفنا إلى شارع «الكرادة داخل» وسط بغداد وبدا الشارع التجارى العريق خاويا الا من بعض المارة ورجال الأمن وعدد أصابع اليد من المحلات التى تفتح أبوابها رغم أن النهار كان قد انتصف منذ حوالى ساعة فقط ورغم أن المشهد فاجأنى قليلا إلا أننى كنت قد بدأت أعتاد الأمور الغريبة .. قال لى أبو محمد : إن بغداد باتت شبه مهجورة وتتحول إلى مدينة أشباح قبل حلول العصر بسبب عصابات القتل القذر التى لا تترك فرصة لأى حياة طبيعية .. انظر هذا قناص وتلك دورية تعمل نهارا براتب مجز ضمن قواتنا الأمنية الجديدة أما عندما يحل الليل فالله أعلم ماذا يفعل جنودها وأغلب الظن أنهم يتحولون لقتلة مأجورين ضمن فرق الموت .. وتنهد قائلا لقد تغيرنا جميعا نحن نقاتل نهارا خائفين من أجل الخبز لأطفالنا ونرحل فى الليل إذا أخطأنا الرصاص إلى مدن مهجورة نرتجف حين نسمع نشرة الأخبار .. نرتجف حين يرن الهاتف .. نرتجف حين يدق أحد باب بيتنا وإذا مر الليل علينا ومازلنا على قيد الحياة لم تفاجئنا قذيفة هاون طائشة أو قصف أمريكى لمجرد الاشتباه نصحو لنواصل السير ونعيش الحياة بنفس الطريقة .. خائفون نهارا .. مرتجفون ليلا نسأل الله أن ينتهى هذا الكابوس .

عندما وصلنا إلى ميدان كهرمانة[1] كان يقف تمثالها الشهير وحيدا بين زلعه الأربعين بعد أن انقطعت المياه عن نافورته الجميلة التى كانت تزين قلب بغداد.. بعدها وصلنا إلى ساحة الفردوس الشهيرة التى سقط منها تمثال صدام حسين فى ٩ أبريل عام ٢٠٠٣ وبدا لى نصب غاية فى القذارة يبدو كمسخ بلا ملامح أو تعبير عن أى شيء[2] وبدأت ملامح شارع السعدون تظهر شيئا فشيئا تحيط جانبيه الكتل الأسمنتية التى تشبه جدران السجن وأحيط فندقاه الشهيران « فلسطين ميرديان وعشتار شيراتون» بالمئات منها بينما أغلقت كل الشوارع المحيطة بهما فى مشهد غابت عنه الحياة وبدا الفندقان الشهيران اللذان كانا يعجان بالحياة كمعتقل كبير محاطًا بالأسوار والأسلاك الشائكة والآليات العسكرية ورجال

(١) أحد أشهر ميادين بغداد تتوسطه كهرمانة زوجة علي بابا وحولها ٤٠ زلعة ويقع وسط العاصمة .
(٢) تمت إزالة النصب لاحقًا .

شركات الأمن الخاص وبعض عناصر من الشرطة والجيش فيما خلا الشارع تماما من المارة إلا من عدد بسيط لسيارات تسرع الخطا للعودة إلى بيوت أصحابها قبل أن يحل عصر اليوم وتصبح الشوارع مصائداً للموت المجانى.

ودعنى أبو محمد الطيب داعيا لى بكل ما استحضرته ذاكرته من دعاء كما يودع أخا عزيزا أو ابنا يعرف أنه ربما لن يلتقيه مرة أخرى ثم قاد سيارته مسرعا قبل أن يحين موعد نهاية النهار الذى حدده مرسوم مكتوب بدماء ضحايا القتل الأعمى فى فورة العنف الطائفى بأن ينتهى بعد الظهر ليبدأ نهار آخر لأنماط أخرى من كائنات زمن المذبحة .

عندما بدأت أولى خطواتى على أرض عاصمة الرشيد فى نهار ١٦ أغسطس القائظ ورغم كل ما مررت به من مشاهد وما عرفته من أمور غريبة عن أوضاع العراق الجديد إلا أن مشهد الطريق المؤدى إلى مكتبى خلف فندق مريديان فلسطين فاجأنى بشكل كبير .. كتل كونكريتية تقطع الطريق إلى شارع أبو نواس الموازى لنهر دجلة يقف خلفها شباب وفتيات بزى مدنى يحملون الأسلحة الرشاشة تقف خلفهم عربة عسكرية من نوع همر يعلوها موقع لجندى خلف سلاح آلى مستعد لإطلاق الرصاص لمجرد الشك دون انتظار النتيجة .. وعبر بوابة ضيقة مررت إلى الطريق المغلق بعد خضوع لعملية تفتيش دقيقة لحقيبتى اليتيمة وملابسى وتدقيق وفحص مركز لأوراقى وجواز سفرى تبعتها أسئلة متوالية عن سبب وجودى بالمكان والى أين وجهتى مع علامات دهشة واضحة على وجه الشباب عندما أبلغتهم أن مكتبى يقع بجوار فندق شقق الربيع السياحية وبادر أحدهم بالقول أن الفندق مغلق وليس به أحد وأن البناية التى تقع بجواره شبه مهجورة وليس بها سوى مكتب وحيد لا يحضر من به إلا أياما معدودة طوال الشهر إلا أنهم تركونى أعبر منتظرين عودتى إليهم مرة أخرى بعد أن أكتشف الأمر بنفسى .

هالنى مشهد الشارع الصغير الذى كان يعج بالحركة رابطا بين شارعى أبو نواس والسعدون يرتاد النزلاء فنادقه الثلاثة « شقق الربيع والأندلس والفنار» فيما يرتاد الضيوف والعملاء مكاتبه العامرة بالشركات ومحال الأنتيكات والتحف والسجاد الراقية .. شقق الربيع السياحية التى يمتلكها الرجل ذو الشخصية القوية النافذة عباس النبهان ويديرها أولاده اللذين تربطنى بهم صداقة قوية أسامة وحيدر وزيد وعمار ولا توجد بها شقة فارغة لنزيل جديد ويعتبرها مالكها درة ثروته .. رأيتها موصدة أبوابها ولا حياة فيها .. عمارة الكبيسى التى يقع بها

مكتب الوكالة وكانت تضم مكاتب المركز التجارى المصرى والشركة المصرية لتجارة الأدوية ومكاتب لشركات كبرى ومحامين .. وجدتها مهجورة يعلو التراب جدرانها بعد أن كانت أفضل بناية فى المنطقة الراقية نظرا لنفوذ مالكها شوقى الكبيسى .. بينما بدا الشارع خلف المريديان خاويا مهجورا يثير الرعب فيما اختفى مقهى البغدادى الشهير على ضفاف نهر دجلة الذى كان يعد درة شارع أبو نواس .

صعدت درج سلم عمارة الكبيسى متثاقلا تتملكنى الهواجس وتحيط بى الظنون من المجهول الذى ينتظرنى حتى وصلت إلى الطابق الثالث الذى تفوح منه رائحة العفن المنسوجة من غبار الذكريات ووحشة الراحلين اللذين هجروا عشاقهم ..دلفت إلى المقر الجديد للوكالة الذى انتقل إليه المدير السابق على عجل قبل أن ينتقل إلى مصر الأمن والأمان قبل أن تدركه المذبحة التى كانت بوادرها تلوح فى الأفق ويجهز الواقفون على حافتها أسلحتهم لبدء أبشع مرحلة مر بها العراق والعراقيون على مدى تاريخهم المصبوغ بالدم والقهر والكوارث .

٥ - وين أروح

عندما وطأت قدماى أرضية المكتب المتربة فاجأتنى رائحة روث الطيور التى اتخذت من بعض أجزائه مقار لها وملاذات آمنة بعد أن أصبحت أرض سمائها غير آمنة ..هرعت دون جدوى لإشعال مصابيح المكتب فلم ترد الكهرباء التى عرفت فيما بعد أنها انضمت إلى المستحيلات الثلاث / الغول والعنقاء والخل والوفى/ فى العراق الجديد .. هرعت إلى حيث «من المفترض» أن توجد صنابير المياه لترطيب وجهى المشتعل بفعل ما رأيت ونزق اصابع الظهيرة التى نشبت مخالبها فى كل أنحاء جسدى مع جو شديد القيظ لا أدرى من أى جحيم جاء فاكتشفت أن حال الماء لا يختلف عن حال الكهرباء وبدا أثاث المكتب المتهالك مبعثرا دون ترتيب حيث تم وضعه فى غير أماكنه على عجل ودون ترتيب يذكر مما يدلل على الحالة النفسية للمشرف على عملية الانتقال إلى المقر الجديد الذى يلائم الأوضاع الجديدة حيث كان مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فيما مضى والذى يشغل الطابق الأول من نفس البناية بامتداد أربعة شقق من أفخم مكاتب المؤسسات الصحفية العاملة بالعراق قبل أن تدمره آثار هجوم انتحارى بشاحنة تحمل حوالى ثلاثة أطنان من المتفجرات استهدفت الفندقين الشهيرين المقابلين له / فلسطين

مريديان وعشتار شيراتون/ إلا أن الانتحارى لم يتمكن إلى النفاذ للداخل وإلا كان الفندقان قد باتا أثرا بعد عين .. أما المقر الجديد فلم يعد يشغل سوى شقة واحدة متواضعة بالطابق الثالث كانت قبل الغزو الأمريكى مقرا لأحد المحامين المشهورين ينتمى لعائلة صدام حسين إلا أنه هجرها فارا بعد انهيار النظام تاركاً إياها مقرا وملاذا آمنا للجرذان تختبىء فى الشقوق نهارا والطيور البرية لتضع بيضها وتزيد أعدادها عندما يحل الظلام .

على وقع المشهد المحبط والساعات الكارثية التى مرت بى منذ الصباح ألقيت بجسدى المتعب على مقعد بائس يغطيه التراب تحتدم مشاعرى وتفور أحاسيسى لتغزونى حيرة وتمزقنى أفكار سوداء توقظ بركانا خامدا فى أعماقى تكوى حممه ضلوعى المنكسرة لترتد نيران غضبى المشحونة بالخوف أحاول إطفاءها بمياه التأسى .. إلا أننى أتداعى لتهبط عزيمتى إلى ما تحت الصفر .. أحاول التماسك واللجوء إلى الصبر ربما يمنحنى بريقا من الأمل .. إلا أن أسطورة الصبر تعجز بكل طلاسمها وتعاويذها عن مد يد العون لى لاستمر وسط معاناتى من دوامات المشاعر المتناقضة لينهمر شلال ذكريات كادت أن تقودنى إلى الجنون .. « أين أصدقائى اللذين ينتظرون قدومى إلى العراق كما أبلغنى من سلمنى مفاتيح المكتب بعد أن وصل إلى القاهرة منتشيا ؟؟ » .. أين الإمكانيات المتوافرة فى المقر الجديد الذى لا كهرباء فيه ولا ماء ؟؟ » .. « أين ذهب الناس الذين كانوا يشغلون الشارع بفنادقه ومقرات شركاته ؟؟ » .. « أين أذهب ولمن ألجأ ؟؟ » فلا أصدقاء ولا شركاء ولا طريق للعودة بعد أن اقترب الوقت من الساعة الثانية ظهرا وهو وقت لا يجرؤ كائن من كان على التحرك فيه فى تلك الأيام العصيبة التى كانت فيها الشوارع مرتعا لفرق الموت وعصابات القتل والاختطاف .. شعرت بسقوط مروع على صخرة واقع أشد ألماً من أسوأ الكوابيس فتناثرت أحلامى فى المجد الصحفى ورد الاعتبار والانتصار إلى قطرات ضائعة بعد أن اصطدمت بأرض الواقع والحقيقة المريرة التى أخفاها عنى من قادنى إلى هنا حتى يعود هو سالما إلى مرافىء الأمن .

استجمعت ما تبقى من قوة وعدت ركضا إلى عناصر الشركة الأمنية الذين كانوا متأكدين من عودتى إليهم مرة أخرى لاجئا أو مستفسرا أو طالبا للمساعدة فهم رغم عملهم فى الشركات الأمنية الخاصة سيئة السمعة إلا أنهم فى النهاية عراقيون طيبون ولهذا رثوا لحالى وحاولوا التخفيف من وطأة الموقف الفاجع .. واقترح أحدهم أن أبيت ليلتى فى فندق الأندلس الذى يقع فى نهاية

الشارع لأنه الفندق الوحيد الذى ما زال فاتحا أبوابه رغم أن شقتين فقط من شققه الثلاثين تضم نزلاء .. تحركت ركضا صوب الفندق الذى كان يقف على بابه حارسان مدججان بالسلاح على غير العادة وإنما تماشيا مع الظروف الجديدة.

استقبلنى الحراس الطيبون وقدموا لى الماء البارد ونصحونى بالتوجه أولا إلى الطابق السادس حيث مقر وكالة « إخلاص التركية» وهو ما جعلنى استعيد بعضا من لياقتى وصعدت درج الفندق قفزا رغم ما أعانيه من إرهاق شديد ليستقبلنى عراقى طيب من أهل كركوك يعمل بوكالة إخلاص اسمه رياض ويهدىء من روعى بعد أن احتضنته كأننى وجدت منقذا بعد وديان وبحور القلق والخوف واليأس التى خضتها على مدى ساعتين وحيدا فى المكتب المهجور .. إلا أننى لم أتمكن من استعادة حماستى القديمة بسبب الحيرة التى كانت تمنعنى من التفكير الصائب وهو ما جعلنى لا أستبق الأمور أو أتبنى سيناريوهات مسبقة لما سيأتى لاحقا، وقررت هذه المرة الاستماع بدقة لشاب يعمل فى نفس المجال الصحفى وهو ما يدعو للارتياح لأنه يشاركنى جزءا كبيرا من التفكير الذى يتيح رسم صورة شبه واضحة وأكثر صدقا لمشهد العراق الجديد من أبو محمد أو غيره .

بدأ الشاب العراقى الطيب يقص على مسامعى كيف صارت الأمور بعد سقوط بغداد فى يد القوات الأمريكية وما ضربها من متغيرات صادمة على كافة الصعد سياسيا واقتصاديا وأخلاقيا، وفى الوقت الذى لم يتسن للعراقيين بعد أن يستوعبوا صدمة سقوط عاصمة الرشيد بنظامها الهش الذى ملأ الدنيا ضجيجا عن أسلحته الفتاكة وقوته التى لا تستطيع قوى العالم مجتمعة هزيمتها حتى عاجلتهم فاجعة لئيمة لتكمل على ما تبقى من روح فى جسد مثخن بالطعنات من الأصدقاء قبل الأعداء إلا أنه لم يتلقى الفاجعة هذه المرة رابط الجأش كما اعتاد على مدى تاريخه حيث لم يتبق فيه موضع لتلقى الطعنات .. تلك الفاجعة اللئيمة المخلوطة بسموم المؤامرات التى جعلت فرق الموت والميليشيات وعصابات الغدر المسلحة تجثم على صدر البلاد وتنكل بالعباد وصار فقد الأحبة وغير الأحبة ضريبة يدفعها الجميع قسرا دون تفسير أو سبب معقول للقتل الأعمى الذى غالبا ما يسبقه عمليات تعذيب انتقامية للضحايا حتى بات الموت المفاجىء فى تفجير أو إطلاق نار أمنية يسوغها الرعب من التنكيل والتمثيل بالجثث بعد نزع كل ما يشير إليها لتلقى جثة مجهولة الهوية فى

أحد مقالب القمامة أو ما يعرفه العراقيون بـ « السدة» لتنهشها الكلاب الضالة أو يذيبها حريق أو تلتقطها ايادى الرحمة لتلقى بها فى مزبلة الطب العدلى « المشرحة» سيئة الصيت ليتم دفنها فى قبور جماعية ويحمل صاحبها رقما وتاريخا ربما يدلان على هويته واسمه الذى عاش به قبل أن تلتقطه فرق الموت ويصبح جثة مجهولة الهوية .

صارت تلك الميليشيات وفرق الموت واجهة لكل من يخون ويقتل وينهب ويتاجر بالدين ويخرب ويدمر ويزرع الموت والرعب باسم الوطن والديمقراطية والدين والطائفة والقومية ضمن مشاريع مشبوهة لا يدرى أحد من أى جحيم جاءت وإلى أين سوف تمضى فالجميع يتهم الجميع بالتآمر على العراق ويسوغ الحجج والمبررات لهذا الاتهام ويأتى بالشهود لحشد ضغط اجتماعى فى اتجاه تحقيق الانتصار المزيف على عدو كان أخا وصديقا وجارا لصيقا لم يسأل أحد من قبل عن طائفته إذا كان سنيا أو شيعيا وعن قوميته إذا كان عربيا أو كرديا لأن فى العراق متسع للجميع « عربا سنة وشيعة .. أكرادا سنة وشيعة .. تركمان سنة وشيعة ومن ذاق معهم مرارة الأيام وشرب من دجلة والفرات .. صابئة وأيزيديين وكلدواشوريين وشبك وما جمع الله فى تلك البلاد من العباد على مختلف مسمياتهم.

قال لى الشاب العراقى الطيب : « إن أيامنا ذبلت .. ماتت .. نعيش حياة من العدم القاحل المنعزل .. نتقلب فيه على حجر الأيام القاسى شديد الصلادة .. نجوب الأرض يوميا مثل أسراب النمل .. بعضنا كفنته الحياة فانطوى على بأسه فى أقبية مظلمة خانقة يمضى سنوات شاحبة .. وآخرون ينطوون على بصيص ضوء يأتى من المجهول والعدم ربما تنبثق الحياة ذات يوم من العدم وهو شعور يجعل من الحياة أمرا ممكنا رغم كل ما يجرى حولنا من كوارث وما نتعرض له من فواجع » .

كانت ابتسامة يأس ترتسم على شفتيه طوال الوقت الذى تحدث فيه .. وكنت أعرف أن نوبات البوح يمكننى من خلالها بقليل من التيقن والانتباه أن أستشف الحقيقة كاملة لأنه سيكون صادقا إلى أقصى درجة .. فهمت أن العراق بدأ يقسم إلى مناطق للسنة وأخرى للشيعة يستعصى على أى منهما المرور عبر منطقة غير المرسومة له دون أن يناله نصيب من الرعب أو القتل وهو ما جعل العراقيين يحملون أكثر من هوية فهذه باسم عمر مثلا والثانية باسم عمار وهذه باسم عائشة والثانية باسم فاطمة أو زهراء مع تحمل كافة المخاطر إذا اكتشف

أحد عناصر نقاط التفتيش الوهمية التى تنتشر فى الأحياء والمناطق وجود هويتين لشخص واحد وهنا لا مُصير إلا القتل دون معرفة حقيقة العابر إذا كان سنيا أو شيعيا .. بينما تبقى مناطق تمثل معضلة كبرى وهى أن قسما منها يقبل عمر فى أول الطريق ويقبل بعمار فى وسط الطريق ..

كما أن هناك نماذج بشرية لا مناص من قتلها فى كثير من المناطق سنية كانت أو شيعية وغالبا هم موظفوا الدولة والعاملون مع القوات الأمريكية وعناصر الشرطة والجيش وفى أحيان كثيرة الصحفيون لاعتبار أن هذه النماذج تمثل عملاء للمحتل وحكومته المتعاونة معه من العراقيين من وجهة نظر القاتل ومجموعته .. وهكذا كانت الجثث تتوافد على المستشفيات فى كل لحظة وكأن البلاد صارت جبهة حرب جديدة بلا معالم واضحة للعدو فالكل عدو للكل والجميع يقف على بوابة الجحيم أما قاتل أو مقتول أو منتظر للدور أن يأتيه فى دوامة الموت العبثى التى ينتظر من فيها على حافة الأمل من يمزق الأقنعة ويكشف الزيف ويعرى الألاعيب التى يقصد منها الخداع والتضليل التى يؤديها عصابات من الأفاقين بهدف شل إرادة العراق بعد أن اتفقوا على شيء واحد رغم أنهم أضداد فرقاء اتفقوا فقط على القتل ووضع من تمكن من النجاة على شفا حفرة من الموت ..

معادلة غريبة تجرى بالعراق لا أحد يعرف كيفية حلها إلا من وضع رموزها وابتكر عقدتها فملايين العراقيين ممن قصم القتل والإرهاب والعنف والموت ظهورهم بعد دخول القوات الأمريكية إلى بغداد وانهيار نظام صدام حسين فى ٩ أبريل ٢٠٠٣ هم ضحايا الحكومة والمعارضة والاحتلال على حد سواء ..

فالحكومة تدعم الإرهاب والمعارضة تدعم الإرهاب والاحتلال يدعم الإرهاب « كل بطريقته التى سوف نرويها عندما ندخل المذبحة » والدليل على هذا الدعم المفضوح هو أن الإرهاب والإذلال والعنف والقسوة والتدمير للبلاد والعباد والانتهاكات المشينة لحق الحياة تجرى تحت سمع وبصر الجميع وبمباركتهم .. فقوات الأمن تقتل وتعذب وتنتهك وتبارك الحكومة ذلك كونها تؤدى الواجب فى القضاء على المجرمين الذين هم من وجهة نظر المعارضة مقاومون شرفاء مع أنهم يمارسون الاختطاف والقتل على الهوية ويفجرون البيوت والأسواق الآمنة سواء استهدفوا قوات أمريكية أو عراقية أو لم يكن هناك ما يستهدفونه سوى المدنيين الأبرياء وهم من تعتبرهم القوات الأمريكية إرهابيين يمارسون العنف ويشعلون فتيل الحرب ضدهم وتقتل من تستطيع قتله بضربات جوية قاسية قد تطيح بيوتا آمنة لأبرياء ناموا

مطمئنين لأن تنقذهم براءة أطفالهم وسكينة نسائهم وشرف رجالهم من صواريخ الطائرات وقذائف المدفعية الأمريكية التى طالما قتلت أبرياء لمجرد الاشتباه فى اختفاء من تقول أنه إرهابى فى بناية أو بستان باعتبار أن من يسقط هو ضحية حرب شعواء بين الخير والشر[1] .

قال لى رياض بنبرة ألم وتنهد: « هكذا يعيش العراقيون الذين ابتلوا بدفع أثمان باهظة فى صراعات لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وفى كل محنة يتساءلون ما الإثم الذي ارتكبوه، هل حقا هي لعنة كما يقول البعض عندما ييأسوا من التوصل إلى تفسير منطقي للأحداث؟ لاشيء منطقي فيما يحدث، إننا نفرط بالحياة ونحتفي بالموت، الموت الذي يحاصرنا من كل جانب، وخطاباته منتشرة فى كل الأزقة والأحياء، وطريقنا ممتلئ بخطاباته التي علقت على الجدران الخاوية لبعض القرى التي نمر بها، لكن أكثر تلك الخطابات حرقة فى القلب تلك التي تشير إلى أن الموت جاء اثر حادث غادر، هذا النوع من خطابات الموت هي الأكثر انتشارا فى الشارع العراقي منذ الربع الأول من العام ٢٠٠٦ ، لكن الموت فى بلادنا كالمطر، يسقط بشكل متساو على جميع العراقيين، لا يفرق بين هذه الطائفة أو تلك، الموت أكثر رفعة من السياسيين والمسلحين، فقد أعلن مبكراً شعاره البعيد عن الطائفية، فمتى ندرك أن خسائر جميع الأطراف التي تمتهن الموت متساوية، وان لا رابح فى معركة الطائفية المقيتة »[2] .

٦ - ليل الوحشة والبوم الأبيض

عندما بدأ المساء يسرى فوق البيوت والشوارع ليمنحها لونا حالك السواد .. لاذت بغداد بصمت موحش لم يقطعه إلا أصوات طلقات رصاص وسقوط بعض قذائف الهاون وهى أمور اعتادها العراقيون خلال الفترة التى اشتعلت فيها نيران العنف الطائفى .. ينتظرون أن يشهدوا نتاجها صباح كل يوم فى جثث ملقاة على قارعة الطريق أو خلف السدة أو بيوت مهدمة من قصف أعمى .. وأنا بين الصمت الموحش وأصوات الرصاص والتفجيرات غارق فى تفكير عميق بعد أن تعب

(١) أكدت الوثائق التي نشرها موقع ويكيليس ويبلغ عددها ٤٠ ألف وثيقة أن كافة الأطراف بالعراق شاركت في القتل والتعذيب .

(٢) كانت جدران بغداد عبارة عن حوائط لتعليق القماش الأسود المخصص للإعلان عن موت شخص أو مجموعة أشخاص .

محدثي الطيب واستكان لسبات عميق غير عابىء بما ألقاه فى نفسى من مشاعر وما رسم فى مخيلتى من صور جعلتنى أستذكر قول برنارد شو « استطاعت الإنسانية أن تحقق العظمة والجمال والحقيقة والمعرفة والفضيلة والحب الأزلى على الورق .. فقط » ..

فكل هذا الموت .. وكل تلك الدماء والقتل والعذاب والتدمير والجنون والرعب والعنف والإرهاب والدناءة والتدليس والمتاجرة بالدين والقيم والتاريخ وقضم المحرمات وكل ما يرتكب فى تلك الساعة الصامتة من جرائم يؤكد قول برنارد شو أن كل القيم والفضائل باقية على الورق وربما احترق هذا الورق أيضا ..

فكيف استمر فى تلك الأجواء وهل يمكن أن أواصل مهمتى المقدسة فى كشف الحقيقة وهل سيصدق أحد ما سوف أقصه عليه من حكايات سمعتها ومواقف مررت بها إذا ما طلبت العودة إلى مصر أم أن المسألة سوف تختصر فى اتهام بالهوان والخوف وعدم الرغبة فى العمل وعندها سوف أخرج من دائرة الاهتمام وأصبح مثل العراق فى نهايات عهد صدام حسين دولة خارج الحسابات وأكون صحفيا خارج التاريخ .. تذكرت حكمة صينية تقول « من امتطى نمرا .. حار كيف ينزل عن ظهره »، وها أنا قد امتطيت طريق الصعاب والمشقة والخطر دون أى عون أو سند أو مقومات حياة فلا كهرباء ولا ماء ولا أصدقاء ولا أمن ولا ظهير لى عند المحن ولا مكفن لى عند الموت اللهم إلا « العراقيون الطيبون » .. تذكرت قول جلال الدين الرومى « فى أشد الأحقاد ثمة نكهة حب .. وفى أسلم المبادئ ثمة نكهة حرب .. وفى أقدس المشاعر وأطهرها ثمة نكهة مجون وشهوة » .

مستلقيا على فراش الشوك قضيت أول ليلة فى بغداد واقفا على عتبة الذاكرة .. متأملا فى أعماق الوجدان تتقافز أمام عينى آلاف الذكريات والمشاهد والصور للحرب والحب والفرسان والخونة والإيمان والمجون والرحمة والظلم وسيف الجلاد وقفازات الرحمة .. أيام العذابات والنجاحات .. النصر والهزيمة .. مداعبات أصدقاء الطفولة وأحقاد المنافسين .. صورة أمى وزوجتى وطفلتى .. شقاوة ابنى ومرحه وغضبه ومرضه المستعصى على الحل إلا برحمة من الله [1] .. حكايات

(١) كان إياد ابني مصابًا بمرض النشاط الزائد وليس له قدرة على الكلام والتركيز واستمر علاجه حوالي أربعة أعوام خاض خلالها مئات الاختبارات للذكاء وجلسات التخاطب وتعديل السلوك حتى أتم الله شفاءه .

القتل من عراقيين ليسوا عراقيين ومواقف الرحمة من عراقيين طيبين ..

المروج الشاسعة الأرجاء الخالية من رائحة البشر تنتزع الأمان .. فالسماء موحشة والطرق غريبة ومفزعة مديدة الاتساع بلا أى شيء يوحى بالحياة .. لكن شيئا غريبا وسط هذه الصور والمشاهد والذكريات ظل هاجسى الأكبر أن سماء بغداد ليس بها نجوم وليلها ليس فيه حياة لطيور تغرد ونخيلها وأشجارها لا تسكنها العصافير وانما غربان تنعق وبوم أبيض يصفر محاولا خداع من يستعصى عليه النوم بأنه بلبل وليس بومة بيضاء .. مشهد يكاد يقتل من يحاول تفسيره قبل أن يقتله الجلاد .

بعد تفكير طويل والنظر إلى لا شيء أتفحص سقف الغرفة الذى انطفأت الشمعة المضيئة فيه إيذانا بنفاد بنزين المولد .. أغلقت باب الشك والخوف والقلق بعد أن أدركت أنه لا فائدة من كل ذلك وأنه يجب التعامل مع الأمور بقدر ما تتيح الظروف والملابسات مع الثقة فى رحمة الله واجترار دعوات زوجة مكلومة بفراق الزوج والحبيب ربما يعيننى كل ذلك على خوض غمار المذبحة .